

# الخصوصية والماركسية

## بعض الاستعدادات النظرية

### بصد المرحلة الوسطى<sup>(\*)</sup>

جورج لابين

ترجمة: د. فهدية شرف الدين

#### تقديم

في كل مرة نقرأ مقالاً مترجماً نطرح السؤال التالي، ما هو مبرر هذه الترجمة، خاصة إذا كان المقال قديماً أي أنه صدر منذ وقت طويل.

وفي أحيان كثيرة كان هذا السؤال يلح علي، خاصة أمام ترجمات لا تهمل روح الكاتب فحسب بل تبدو وكأنها جلة قطعت عن سياقها المنطقي التاريخي. ومع أنني اعترف أن هذا المقال ليس حديثاً بمعنى أن كتابته تعود إلى منتصف السبعينات، إلا أن أهميته تكمن في الإشكالية التي يطرحها. هذه الإشكالية الكلاسيكية، التي كانت ولا تزال محور أبحاث المفكرين على اختلاف أهوائهم ومذاهبهم.

فالخصوصية كمفهوم نظري كانت إحدى الركائز الأساسية في الإيديولوجيات السائدة سلباً وإيجاباً: وأما في السلب، فقد رفضت الخصوصية باعتبارها نفيّاً للعام، وخروجاً على قوانين التاريخ.

وأما في الإيجاب، فقد كانت إحدى الركائز الأساسية للإيديولوجيا القومية التي حاولت الخروج على تأخير العام، وتجاوز النظريات الكلية

وبقيت الخصوصية كمفهوم سلاحاً هجومياً في أيدي المنظرين الإيديولوجيين الذين سعدوا هجومهم متخذين من الخصوصية معبراً نحو الأصالة والأصولية.

(\*) هذا البحث الذي لا يتعدى طموحه الإيضاح كان موضوعاً لمداخلة قومت في حلقة دراسية عالمية حول «انتقال الاقتصاد والتابع إلى اقتصاد اشتراكي»، والتي عقدت في جامعة القسطنطينية بتاريخ 30 نيسان 1974، بمبادرة من معهد العلوم الاقتصادية. ويجب أن تظهر ومن المفترض أن تنشر في مجلة «الطلعة» المصرية.

وهكذا لم تستطع الخصوصية في عالمنا العربي أن تقف عند حدود معينة، هي حدود الفكر الرأسمالي السائد الذي استثمر الخصوصية لصالحه، بل أن الخصوصية في عالمنا العربي بما تقدم عليه من علاقة وثيقة بالإسلام وفيه، لم تستطع أن تقدم صياغات نظرية بعيدة عن الدين، فكانت إما اتباعية أصولية تقدم قراءتها على ضوء الدين وفي سياقه.

وإما انتقائية تمايز عن الأصولية الدينية بادعاءات العلم والعلمانية، ولكنها تستخدم الدين كسلاح نضالي ضد الإيديولوجيات والنظريات الأخرى.

إن اختيار هذه الترجمة تم على ضوء مسألة منهجية تعتبر أن انفاذ العام في الخاص لا يتم إلا على ضوء «خصوصية» هذا الخاص، هذه الخصوصية هي التي تعدل المادة، فتعطي للعام مذاقاً ولوناً مختلفاً، وأن هذا الاختلاف يتحدد بدءاً بالخاص المميز الذي يفعل فيه العام فعله الأساسي.

هكذا يمكن لهذه المقالة أن تعيد المسألة إلى نقطة البدء وتعيد طرح مسألة «الخصوصية» كموضوع نظري بحث إلى صلة النقاش، لا لتؤكد أو تنفي، بل لتساهم في تحديد الخصوصية العربية، بما أنها موجودة ولا أحد يستطيع أن ينكرها، ولكن بعيداً عن التشنج الذي يسحب عن الخصوصية غطاء العلم ويلبسها رداء الإيديولوجية التبريرية أو الهجومية أو النضالية في أحسن الأحوال.

إن للخصوصية بعدها العلمي الأساسي، الذي يتعرف ويتحدد بالمعرفة العلمية الواضحة لأحوال مجتمع ما، وشعب ما أو جمهور ما، في مرحلة تاريخية معينة، هي أولى بالبحث أولاً وأخيراً.

د . فهمية شرف الدين

مجدداً<sup>(1)</sup>، لماذا الخصوصية؟<sup>(\*)</sup>

لأنه من الواضح أن لهذا الموضوع تاريخ صعب، خاصة وأنه قائم على عتبة الموقع الذي نحاول استناره هنا، معتبرينه سابقاً على كل مشروع نظري لـ «للمرحلة الإنتقالية»، وذلك لإعاقة وصوله، فنعارض النظري بالتاريخي والمفهوم يواجه الحسي، والكلي يواجه الجزئي وبالعكس. إن استلهم الخصوصية موظف لأجل غاية محددة، هي عرض موضوعات هذا التركيب الاجتماعية أو ذاك، سواء أخذ هذا التركيب بشكل إجمالي أو بأحد جوانبه. هذه الموضوعات هي بطبيعتها مقاومة للمسار الوحيد القادر على إنتاج المعرفة المؤسسة، أي الماركسية، من هنا فإن السؤال المزدوج عن الموضوعات والتحليل، أو ربما أكثر من ذلك عن الفكرة التي نحملها عن الموضوعات والتحليل، أو ربما أكثر من ذلك عن الفكرة التي نحملها عن الموضوعات والتحليل، سي طرح دفعة واحدة، وقبل أن نتوصل إليه، لنقل أيضاً، إنه عندما نعطي، وهذا ليس هو الحال دائماً، للماركسية صلاحية تتعدى القرن التاسع عشر، ننكر عليها إمكانية التوسع خارج الحقل الذي ظهرت فيه لأول مرة، أي المجتمع البرجوازي أو نمط الإنتاج الرأسمالي. بعبارة أخرى، أكان ذلك في «العالم الثالث» أو في التركيبات الاقتصادية الاجتماعية «التابعة»<sup>(2)</sup>. فالماركسية تخضع، على الأقل لتعديلات أساسية في جهازها النظري إن لم تُقرن بالإخفاق، وهذا لن يتم، كما نظن بدون نتائج سياسية محددة، إن الدلائل معروفة بشكل كاف، لذلك سنثيرها بصورة سريعة:

---

(\*) نشر هذا المقال في المجلة الفرنسية Pensée في العدد 177 - السنة - 1974 .

تختلف بصورة عامة، ضعف في علاقات الإنتاج الرأسمالية، أشكال من الإستعمار والهيمنة، طبقات غير متكاملة، فلاحية قوية، أنماط إنتاج فريدة، نقص في الإنصهار الوطني، ثقل في الذهنيات، مقاومة إيديولوجية، كثير من «العقبات» التي تسد الطريق لتعيق ما نريد، ولم لا، طالما أن معظمهم يتلطف فيتكلم عن مجتمعات «بدون تاريخ» الخ. وهذا كما نعلم، يؤدي إلى الزنجية، أو الإسلامية.. وبصورة عامة، إن هذه الإشتراكيات الموصوفة بصفة من الدستورية إلى الزنبارية، تشترك جميعها، مع الاختلاف الواسع للخصوصيات التي تمثلها، في إفراغ الصفة العلمية من مدلولها. وهكذا علمنا منذ مدة أن قراءة القرآن تعفينا من قراءة رأس المال وأن ابن خلدون يحتل مكان ماركس، وحديثاً، أن الكومونة الصينية لا تثير حسد الجماعة البربرية. فلنفكر بالريح الذي نجيه من هذا الموقف، وبالجهد النظري الذي سنوفره، كذلك في العمل التاريخي والسياسي! وفي النهاية نستطيع أن نعترف: أن هذه الحلقة الدراسية لا هدف لها، والمرحلة الوسطى ليست سوى أسطورة! ذلك لأنه مع الخصوصية نحن دائماً في دولا ب المغل أحياناً بامتلاك «الكثير»، من صلات القرابة مثلاً، أو الدين، أو المواد الأولية، وأحياناً أخرى بامتلاك «أقل مما ينبغي» من البضائع، والديمقراطية والطبقات الاجتماعية: «كثيراً» أو «أقل مما ينبغي»، بالنسبة لأي شيء؟ بالطبع بالنسبة للنموذج التصوري الذي اختزلت إليه النظرية، أو التي اعتقدنا أنها كذلك، إن ما يسمى «نموذجاً»، تم بناؤه بصورة أسهل بكثير من بناء الموضوع المتعلق بالخصوصيات: تفوق، غط إنتاج رأسمالي، هيمنة استقطاب ثنائي طبقي، إنصهار وطني «تاريخ»... كل شيء معد، دون أية عقبة، ليكون أرضية «للانتقال نحو الإشتراكية». هذا التقديس النظري يتمتع بنجاح كبير، أحياناً، تارة بشكل ماركسية جامعية لا تنسجم مع مقولات رأس المال، وتجيد فن تحويل، كل تجربة انتقالية إلى نموذج: وهكذا يصبح لدينا من «النماذج» الإشتراكية بقدر ما لدينا من بلاد اشتراكية، أو بلاد تدعي أنها كذلك. وعلى غرار المجموعات الفارغة في الرياضيات الحديثة، من المؤكد إننا لن نتأخر في الحصول، إذا كان ذلك لم يحصل بعد، على نموذج غياب النموذج، تارة أخرى بسما ماركسية هذيانية، حيث الصينية التي لا تحاكي الصين الحقيقية إلا قليلاً، هي الفلسفة النهائية التي تحاول أن تمرر المشاريع التاريخية المتنوعة عبر منحل الجواهر الثورية. فمن جهة انتقائية؟ علمية، تستعيد تلك الأيام الجميلة للمعاهد «العلمية»، ومن جهة أخرى مانوية متطرفة تخضع المواقف التاريخية للحجز دون إذن مسبق، في الحاليتين إنها أرض خصبة للخصوصيات التي لا تقبل الاختزال، هكذا تكون النظرية قدست ولم يعد لها موضوع عيني.

في مقابل هذا الجمع النظري، وبدون أن اتوقف كثيراً على نمذجته ولا على شرح هذه النمذجة التي ربما تحتاج إلى بحث آخر<sup>(3)</sup>، أقدم الأطروحة التالية:

إن موضوع العلم الذي أسسه ماركس هو الخصوصية التاريخية، ولا موضوع آخر لهذا العلم:

وحتى لا يساء الظن بي، فيحمل هذا الطرح أثراً ظرفياً أو استعادة لشيء من الـ «أرثوذكسية» اسمحو لي

أن اعين الإطار العام، الذي ستتبدى فكرته التجريدية، فيما بعد، كما أرجو.

إن تميز الخصوصي (بما أنه يوجد ولا أحد ينكره) يعني أن نمتنع عن السيطرة على التجريبي، فنمنح هذا التجريبي بنية محسوسة، فنخضع أما لفوضى الوقائع، وإما « للأقدار » التي ترعى إدراكنا له، وعلى العكس إن التمسك بالعام وحده يتيح للواقع بصورة غير محددة، أن يجري عبر المصفاة التي تستخدمها له الانتهازية والعفوية و« الصدف السعيدة » من جهة، والتبسيطية والإرادية و« نماذج » صالحة معدة مسبقاً من جهة أخرى. والفصل بينها يحقق المأساة: فما هو تحصيل حاصل بالنسبة للتطبيق العلمي، ليس كذلك بالنسبة للتاريخ: إن إنتاج المفاهيم وفقاً للمحسوس وغاية هذا الإنتاج التي هي « امتلاك » وتحويل هي التي تجعل العلمي « متفوقاً على النظري » بمنحه ليس فقط مكانة العام بل مكانة الواقع المباشر<sup>(4)</sup>.

سأبدأ بتاريخ يستحق التأمل، لأنه مثالي، بالمعنى الحقيقي والمقصود، هو تاريخ تشكيلة - اقتصادية اجتماعية، ونستطيع أن نبدأ هكذا: « يحكى أن تشكيلة اجتماعية، كانت تمثل خصوصية لا تقبل الجدل، هي خصوصية روسيا القديمة، وكان جميع الذين اهتموا بمصيرها يتساءلون عن المرحلة الإنتقالية التي ستكون هذه التشكيلة أرضاً لها، وكان بينهم « الالمان الذين لا يتدخلون بما لا يعينهم، والروس الذين يهتمون بما يخصهم... ».

ولكن لنبق جديدين، ولنترك جانباً أسلوب الأسطورة هذه، مهما عظم ندمنا عليه، ولنعد إلى الوقائع: بدون أي قطع للصلة ما بين ماركس وانجلز ولينين وآخرين غيرهم، نرى أن التحليل للبنية الاجتماعية الروسية، تطور بشكل استطاع معه أن يعرض الشروط الممكنة للانتقال نحو الإشتراكية في هذا البلد، اقترح في هذا الموضوع أن أكتشف وإياكم كيف تمارس المادية التاريخية مفاهيمها في موقف عيني يتمتع بخصوصية على درجة عالية من الكثافة، مع الإعتذار سلفاً لأنني سأقتصر على إظهار المراحل الرئيسية في هذا الموضوع.

## 1 - ماركس:

مع نهاية سنة 60 للقرن الماضي، توصل ماركس في تحضيره للكتاب الثالث من رأس المال أن يولي عناية خاصة لروسيا، لقد كتب في 1781/6/27 إلى صديقه كيجلمان<sup>(5)</sup> Kugelmann يقول: « حتى نبث المسألة الزراعية أصبح من الضروري الآن أن ندرس في المصادر الأصلية، شروط الملكية العقارية في روسيا ». فبعد أن درس اللغة في الخمسين سنة الماضية، وتعرف مباشرة إلى أدب هام يصور بشكل خاص أعمال تشرنيتسكي، والذي فكر ماركس بتكريس دراسة له (رسالته إلى Danielson في 1872/12/12) كذلك كتاب « موقف الطبقة الفلاحية في روسيا لـ Florevokl والذي امتدحه كثيراً. كتاب « النظام العقاري التعاوني، أسبابه تسلسل حوادثه ونتائج تحله » للسيد Kavoleski الذي ظهر في موسكو سنة 1879، والذي يستحق لوحده تحليلاً كاملاً<sup>(6)</sup>. بالإضافة إلى ذلك، فوجيء ماركس سنة 1868 بأن أول ناشر رشح نفسه لترجمة الكتاب الأول

لرأس المال كان روسيا وكان اسمه Pollakov (رسائله إلى Danielson في 7/10/ و إلى Kuglman في 10/10/).

ما الذي أثار انتباه ماركس؟ السمات الخاصة للتركيبة الاقتصادية الاجتماعية الروسية تحديداً. فلنعدد بعض هذه السمات: قلة عدد البروليتاريين الذين ليسوا سوى «مقاطعين مصرهم اقبح من مصر أي بروليتاري آخر» (رسالته إلى انجلز في 70/2/10، أهمية الحركة الفكرية حيث أن «عقولها المفكرة مرتبطة بالشعب بخيوط غير مرئية» (رسالته إلى ماير 71/1/21)، الوضع العقاري، المالي (رسالته إلى Danielson 78/11/15). لقد كان ماركس مطلعاً بانتظام (خاصة من Danielson) على المجادلات التي أثارها كتابه في روسيا، ورد على Vera Zassoulitch التي أسست مع Axelrod و Plekanov المجموعة الماركسية الأولى في روسيا وطلبت إليه تحليل الكومونة الروسية:

«إن التحليل المعطى في «رأس المال» لا يقدم أسباباً لصالح حياة الكومونة الريفية أو ضدها، ولكن الدراسة التي قمت بها والتي بحثت عنها في المصادر الرئيسية أقنعتني أن هذه الكومونة هي نقطة الإرتكاز في التحدد الاجتماعي الروسي، ولكن حتى نستطيع إنجاز ذلك يجب أن نبعد عنها التأثيرات المضرة التي تعترىها من كل الجهات وأن نؤمن لها الظروف الطبيعية لتطور عفوي» (رسالته: تاريخ 81/3/8). في التمهيد الأخير للطبعة الروسية للبيان الشيوعي، الذي كتبه مع انجلز، قبل موته بسنة واحدة، وبعد ان يلاحظ أن روسيا أخذت تلعب دور «الطنيلة للحركة الثورية في أوروبا» بعد أن كانت رأس الجسر للرجعية الأوروبية، يستنتج ماركس ما يأتي: «لقد كانت مهمة البيان الشيوعي أن يعلن الاختفاء القريب والمحتمل للملكية البرجوازية، لكن في روسيا، حيث المضاربة الرأسمالية تنمو إلى جانب الملكية البرجوازية التي هي في طريق التكوين، فإن أكثر من نصف الأرض هو ملكية مشتركة للفلاحين، الغاية الآن هي معرفة ما إذا كانت الكومونة الاشتراكية الروسية، هذا الشكل المحلل من المشاعية القديمة للأرض سيعبر مباشرة إلى ملكية عقارية في الشكل الشيوعي الأرضي، أو إذا كان يجب أن يتبع سيرورة التحلل نفسها التي خضع لها في نموه التاريخي في الغرب. إن الجواب الوحيد الذي نستطيع تقديمه اليوم على هذا السؤال هو الآتي: إذا أعطت الروسية الإشارة للثورة العمالية في الغرب وتكاملت الإثنتان، تستطيع الملكية في الكومونة الحالية في روسيا أن تكون نقطة إنطلاق لتطور شيوعي» (82/1/21).

إن الخصوصية تلزم بنتائج محددة: لنعين النتائج التي توصل إليها بعد عقدين من البحث:

- إن التشكيلة الاجتماعية الروسية هي في مرحلة انتقالية وليس هناك من تلاعب.

- هناك طريقان للتطور: طريق التطور الرأسمالي ولنسميه «العادي» وطريق الكومونة ولنقل عنه انه

«متفرد». لنشر خاصة إلى أن ماركس لم ير أية غرابة تدفعه سواء إلى معارضة الحاجز الذي يمثله هذا الموضوع بالنسبة لـ «نموذجه» أو إلى معالجة هذا النموذج من جديد: لقد بنى التشخيص العلمي بكثير من الهدوء كما يصنع البيولوجي قطعة مفيدة بين السيف وحده.

## 2 - أنجلز :

تسلم أنجلز الموضوع تماماً من المكان نفسه الذي تركه ماركس ، فضلاً عن ذلك فقد أعطى أهمية لمخاطب ماركس نفسه Danielson ذلك الذي وصف ماركس ترجمته « رأس المال » بأنها « عظيمة » ، شيئاً فشيئاً مع تقدمه في صياغة الكتابين الثاني والثالث لرأس المال ، لاحظ بصورة أفضل ، أهمية التحاليل المخصصة للدخل العقاري بالنسبة لروسيا وأوصى Danielson بها في عدة مناسبات ( رسائله في 85/6/3 ، 87/2/19 ) وهذا الأخير من جهته كان يعلمه بمشاهداته الخاصة ، كان يعرض الملاحظات ويعطي النصائح وخاصة في مشروع « بنوك الفلاحين » ( دانيلسون كان مستخدماً في بنك خاص لهم ) التي عندما تفتح حسابات للمالكين العقاريين صغاراً أو كباراً ستمثل تحريراً « للرأسماليين المتضررين » في روسيا كما في غيرها ( رسالته في 88/1/5 ) .

ويتسارع التطور ، لكن أنجلز يبدو أكثر حرجاً بالنسبة لمراسله ، الذي لم يلحظ مدى الخراب الذي يحمله التوسع الصناعي للاقتصاد الفلاحي ، وكيف أن علاقات الإنتاج في روسيا أيضاً تخضع للقوانين التي استخرجها ماركس ( رسالته في 91/10/28 ) . هل تستطيع L'obchtchina لـ ( الكومونة الريفية ) أن تصمد ؟

« يبدو لي أن الفلاح الروسي لن يستسلم للموت هناك حيث لا حاجة له كعامل في المعمل أو في المدينة ، وأنه سيقتل نفسه مرات عديدة قبل أن يموت من أجل لا شيء » ( المصدر نفسه ) .

وفي غضون شهور تأكدت شكوك أنجلز : « يبدو أن اللحظة اقتربت ، على الأقل في بعض المناطق ، حيث تفقد المؤسسات الاجتماعية القديمة قيمتها في الحياة الفلاحية الروسية ، ليس فقط بالنسبة للفلاح كفرد ، بل أصبحت أيضاً عائقاً ، تماماً كما كانت الحالة بالنسبة لأوروبا فيما مضى ، أظن أنه علينا أن نعتبر Obchtchina حلماً من الماضي ، وأن نعلم في المستقبل على الرأسمالية ، لا بد أن هذه فرصة كبيرة تحتضر ، ولكننا لا نستطيع شيئاً ضد الوقائع الاقتصادية . إن الشيء الوحيد الملفت للنظر هو أن الناس أنفسهم الذين يدافعون في روسيا بدون كلل عن تفوق المؤسسات الروسية القديمة على المؤسسات الأوروبية المتعفنة ، يبذلون جهدهم حقاً لتهديم هذه المؤسسات القديمة واستبدالها بمؤسسات الغرب المتعفن » ( رسالته في 92/3/15 ) .

« يبدو لي بديهياً أن الصناعة الكبرى في روسيا ستقتل الكومونة الريفية » رسالته في 92/6/18 - خط التشديد من أنجلز ( الترام / المصادرة تتم حتماً « والفرصة الكبيرة » تختفي : « لا أرى أن نتائج الثورة الصناعية التي تدور تحت أعيننا في روسيا مختلفة عما هي أو عما كانت في انكلترا أو ألمانيا وأمريكا » ( رسالته في 92/9/22 ) . ويضيف أنجلز موسياً : « الإنتاج الرأسمالي ينتج خراب نفسه ، ومن المؤكد أن الأمور ستسير هكذا أيضاً في روسيا » ( المصدر نفسه ) ويحدد أيضاً بنفس الوضوح أن الأمور لن تسير بصورة مختلفة في الصين ( نفس المصدر ، ورسالته إلى كاوتسكي في 94/9/23 ) .

من الآن فصاعداً ، ترتب الميزانية التي عرضها أنجلز في نهاية كتابه عن العلاقات الاجتماعية في روسيا<sup>(7)</sup> انا

الآن احيلكم عليه للاستفادة من الوقت المخصص لنا والذي سأملاه بما عندي من أمور رئيسية، وليس لخوفي من زيادة النصوص والشواهد، فأنتم ترون ان استعمالي لها ليس تلمودياً ولا سحرياً، بل فقط برهاني (إلا في حالة خطأ من جهتي والذي سيعد خطيراً). تلك الميزانية إذن ليست لأنجلز ولكن للظروف الموضوعية التي كان وثيق الصلة بها، لأن التاريخ احتار في « لا شيء مستتراً » من التشكيلة الاجتماعية الاقتصادية في روسيا التي تركها ماركس، اختار سيطرة العلاقات الرأسمالية للإنتاج. هذا واقع لم يستطع أن يقبله داينلسون، من هنا القطيعة: كتب أنجلز لبليخانوف الذي استعاد نشاطه: « أخاف أن لا ينفع معه شيء (...) » ليس من وسيلة للنقاش مع هذا الجيل من الروسيين الذي ينتمي إليه والذي يعتقد دائماً بالرسالة العفوية - الشيوعية التي تميز روسيا، روسيا المقدسة الحقيقية عن الشعوب الآخر المدنسة » (رسالته في 95/2/26).

### 3 - لينين :

لقد أكمل بليخانوف Plekhunov كما قلت منذ قليل براهين أنجلز في روسيا، فأجاب على الشعبيين الذين تساءلوا ما إذا كان يجب أن تتطور الرأسمالية في البلاد كاشفاً عبثية موقفهم مبنياً عن علاقات الإنتاج الرأسمالية موجودة بالفعل، وأن الثوريين، بدل أن يتمسكوا بسراب القدرة على كبتها، مدعوون للتغلب عليها بتنظيم القوة التي تحررهم والتي وحدها، قادرة على مناهضة هذه الرأسمالية هذه القوة هي: البروليتاريا. لقد التزم لينين بالمعركة، على خطى معلمه، وأعطاهها بعدها كله. مستعيراً ومنجزاً العمل الذي بدأته المجموعات الماركسية الأولى، تدخل لينين وبصورة قاطعة في أصعدة ثلاث:

اقتصادي: الرأسمالية تغلبت بصورة نهائية في روسيا (أنظر: الأعمال الكاملة المجلد الثالث).

ايدولوجي: التشكيلة الاقتصادية الإجتماعية الروسية لا تتمتع « بأية خصوصية » تمنع تشغيل المفاهيم المستخلصة من رأس المال (المجلد الأول، أصدقاء الشعب كيف هم، المجلد الثاني ص 534، كتب يقول: « أرضنا التي لا تظهر أية ميزة فريدة ».

سياسي: ضرورة تكوين حزب البروليتاريا (المجلد الثاني: منها الاشتراكيين الديمقراطيين الروس) وبناء على هذا (أنظر خاصة المجلد الثاني - أي إرث ننكر) ثم نقض النظرية الشعبية كأيدولوجية « للمنتج الصغير »، النظرية الشعبية، طوباوية ورجعية، تنفي صراع الطبقات وتستبدل المادية التاريخية / الديالكتيكة بسوسولوجية « ذاتية ».

من جهة أخرى، تستطيع الإشتراكية الديمقراطية أن تعلن نفسها، في مواجهة هذه الشبهة إشتراكية للبرجوازية الصغيرة، وريثة شرعية للشعبية الثورية القديمة وحتى « للمناضلين العظام لنرودنيا قوليا » (المجلد الرابع ص 185) بقدر ما تتابع معركة هؤلاء في سبيل الديمقراطية، وبقدر ما تتواصل هذه المعركة على أسس الشروط التاريخية الجديدة، في النضال من أجل اشتراكية البروليتاريا.



لقد وجه لينين سهامه الأكثر لذةً نحو نيكولاي - اون الذي كان يتمتع بسلطة كبيرة بين الشيوعيين ، فخطأه في قياسه « الدور الموحد للرأسمالية في عدد عمال المصانع » (المجلد الأول ص 343 وما يتبع) وانه يستنتج بعد أن يحلل تحليلاً سيئاً نظرية التحقق أن « الرأسمالية الروسية غير متأسكة وهي مخلوق ميت » (المجلد الثالث الصفحة 23 وما يتبع . أنظر أيضاً المجلد الرابع الصفحة 54 وما يتبع) وأنه يرتكب « الخطأ الأساسي » بعدم رؤية تلازم صراع الطبقات والمجتمع الرأسمالي (أنظر خاصة المجلد الأول ص 334 ، المجلد الثاني ص 529) كما أنه يكمل اعتقاده برسوخ الاقتصاد الفلاحي (المجلد السابع ص 102) وبكلمة واحدة إنه يتصور أن بالإمكان « إنحراف التاريخ عن سيره » (المجلد الثاني صفحة 529) <sup>(8)</sup> .

ولكن نيكولاي - اون ليس غير دانيلسون ، وهو معرفتنا القديمة ، الذي وضع (كما كشف لينين في السنة 1911) في مقال كحساب ختامي (عن Jubilé المجلد السابع عشر ص 107) معرفته لماركس في خدمة الأيديولوجية الشعبية أي بالمعنى الدقيق في خدمة الرجعية . « قصتي » تتوقف هنا ، هي طبعاً أكثر غنى مما قلت ، ولكن هذا يجب أن يكفينا الآن لإظهار العبرة منها .

## 1 - المرحلة الانتقالية:

يفهم عموماً بالمرحلة الانتقالية ، انها عبور ، حركة حالة ما نحو حالة أخرى ، وتؤخذ بهذا المعنى في كل الميادين أو التحديدات التي نريد . هي ليست مفهوماً ، حتى للتاريخ ، ما دام كل شيء في التاريخ هو انتقالي ، وما دام التاريخ هو أرضية ، لهذا الانتقال الذي هو الصيرورة . من الآن فصاعداً علينا أن نعي ما نقول عن الانتقال ، وأن لا نصرف مثلاً بأقل من الموسيقين الذين يميزون بين الانتقال « المنتظم » الذي يرتكز على زمن ضعيف ، « وغير المنتظم » الذي يرتكز على زمن قوي . ويقول ماركس ، الذي ندين له بالنقد الذي تناول الافتراض الميتافيزيقي لزمنية التاريخ ، هذا التاريخ المعتبر كوسط متجانس وسائل تنبثق فيه الظواهر بتتابع مستقيم ، إن تاريخ التشكيلات الاجتماعية يخضع لمبدأ عدم الاستقرار . تطور / ثورة . نسمي مرحلة انتقالية كل تحرك يحدث في الأساس المادي لتشكيلة اجتماعية ، في لحظة محددة ، ووفقاً لزمنية محددة ؛ انها عبور نمط انتاج نحو نمط آخر ، بكلمة أخرى هي دعوى الاستبدال ، تُحلل مجموع البنية الاجتماعية وتعيد تركيبها بشكل مختلف . علينا أن نتذكر « أن التغير في الأساس الاقتصادي يجعل كل البنية الفوقية المضخمة مضطربة » (تمهيد ص 59 لمساهمة في نقد ...) وأن التغير وحده يمكن أن يلاحظ « بطريقة علمية صارمة » (المرجع نفسه) ، نستنتج من ذلك فكرة الأزمنة المختلفة « للمقدمات الضرورية » أو « الدوائر » للتشكيلة الاجتماعية ، كالاتار السياسية أو الأيديولوجية للاضطراب (إنتقال) مادي (اقتصادي) أو فكرة الاشكال الخاصة للتحليل . لنضيف ، أن المرحلة الانتقالية مشروطة بوجود أزمة ما ، ويجب أن لا نخلط بين المعرفة المؤسسة على أزمة ما وأشكال الوعي التي تظهر من خلالها ، وأخيراً إن القول أن المرحلة الانتقالية هي دعوى ، يعني انها تحتاج مما يحتاج المدفع حتى يبرد ، « بعض

الوقت»، هذا الزمن الذي يلعب كل دوره فيه، ولا شيء يلعب من خارجه، فالمرحلة الانتقالية هي نفسها في انتقال، والدعوى الثورية الخالصة التي كانت التعبير السياسي هي أيضاً في انتقال. هذا بديهي دون شك، ولكن علينا أن نذكر انه لا أحد يستطيع ان يخلط التاريخ مع الجنية كاريوس التي تصنع عربة من الفخار بضربة واحدة من عصاها.

إن ما يعرضه ماركس في القسم الثامن من « رأس المال » ما هو إلا دعوى المرحلة الانتقالية فمصادرة الشغيلة هي التي تؤكد انتصار غمط الإنتاج الرأسمالي على غمط الإنتاج الإقطاعي. كذلك هي مرحلة انتقالية تلك التي يراها عبر كوفالسكي، في الخراب الذي يحدثه الاستعمار الفرنسي للملكية القبلية وللكومونة المؤسسة على روابط الدم، في الجزائر<sup>(9)</sup> استعمل لينين من جهته كلمة « مرحلة انتقالية » في عدة مناسبات، وذلك ليميز بعض المراحل التاريخية التي تشترك في كونها مراحل مشحونة ومأزومة استعملها في مفهومين لا أستطيع الفصل بينها بدون تعسف.

الأول (وهو المعنى الأدق) إقتصادي ويخص دعوى استبدال غمط إنتاج بآخر، وهذه هي الحالة التي ذكرت بها، من غمط إنتاج إقطاعي إلى غمط إنتاج رأسمالي في التشكيلة الاقتصادية الاجتماعية، حيث يعطي تطور الرأسمالية في روسيا (المجلد الثاني) البرهان النهائي على الأساس المزدوج لنظرية رأس المال العامة (كعرض لجوهر غمط الإنتاج الرأسمالي). والتحليل الملموس للتشكيلة الاجتماعية الروسية الذي التزمه ماركس وتابعه انجلز وبليخانوف.

وهذه هي الحال أيضاً على الصعيد القومي الروسي دائماً بالنسبة لعبور غمط الإنتاج الرأسمالي نحو غمط الإنتاج الإشتراكي كبناء ثمين للإشتراكية». ولا ننسى أن لينين ساهم بصورة قاطعة في نظرية الإمبريالية كمرحلة انتقالية (انظر خاصة المجلد 22 ص 237 - 244 - 322 - 323 - 325) لأن هذه المرحلة هي في الوقت نفسه التمهيد لتكوين غمط إنتاج أعلى (انظر المجلد 21 ص 414 - 415، المجلد 22 ص 116 - 155)<sup>(10)</sup>

المعنى الثاني مشتق، ويمكن القول انه سياسي، يتحدث لينين عن المرحلة الانتقالية في السنوات الأولى لهذا القرن، التي تخص مرحلة قلب القيصرية وإعلان الديمقراطية البرجوازية في روسيا، كما أنه في 1917 (عندما يتحدث عن انتقال السلطة من البرجوازية إلى البروليتاريا والفئات الفلاحية الفقيرة (المجلد ص 12) أي للسوفييات (المجلد 24 ص 13 - أيضاً ص 28 - 29) وبمعنى أوسع إن الحركة العمالية نفسها تحمل مراحل انتقالية كثيرة بمعنى أزمة / تحرك، ولقد حلل لينين ثلاثة منها سأذكر بها فقط: مراحل بناء الحزب الإشتراكي الديمقراطي في روسيا (انظر الخلاصة في ما العمل). « تصفية المرحلة الثالثة » (المجلد 5 ص 514) مرحلة الثورة - المضادة في نهاية العقد الأول من القرن العشرين في روسيا (المجلد 16 ص 207 - 208) والتي شهدت أزمة ذات خطورة مميزة في الموضوع الثوري نفسه، داخل البلشفيك (وهذا هو الإطار للمادية والمذهب النقدي التجريبي)، وأخيراً في زمن الأمية الثانية (انظر خاصة، المجلد 21 ص 263 وما بعد).

لنختصر: « مرحلة انتقالية »: مفهوم عام للعبور من نمط انتاج إلى آخر أعلى ولقد تحدد بالنسبة للاشتراكية مع لينين، عبر مفهومين: الامبريالية ودكتاتورية البروليتاريا. والسؤال أين هي الخصوصية في كل هذا؟ سئري أنني لم انسها ابداً، وإذا استعدنا عبارة أخرى مع لينين وقلنا أن العبور من «القديم إلى الجديد» لا يتم بالفعل بضربة عصا سحرية، وإذا كانت المرحلة الانتقالية هي نفسها في انتقال، هذا يعني أن على الجديد أن يشق طريقه في قلب القديم ليؤكد سيطرته ولكن في هذه التناقضات الحقيقية، القديم كما الجديد يؤثر أحدهما في الآخر ويتضمن تناقضات جديدة: نحن نعرف من الآن وصاعداً الصفة المهمة التي حلل فيها لينين موقفاً مشابهاً في روسيا سنة 1918 أي في روسيا بعد الثورة السياسية.

إسمحو لي أن اعود إلى البداية: « ماذا تعني كلمة مرحلة إنتقالية »؟

إذا طبقت على الاقتصاد، أن النظام المطروح للمناقشة يحتوي عناصر وأجزاء وبقايا، هي من الرأسمالية والإشتراكية في آن؟ الكل موافق، والذين لا يوافقون لا يتساءلون بدقة دائماً عن ماهية العناصر التي تظهر نماذج اقتصادية واجتماعية مختلفة ومتعايشة معاً في روسيا وهنا تكمن المسألة كلها. فلنعدد هذه العناصر.

- 1 - الاقتصاد البطريكي، أي بمقدار كبير، الاقتصاد الطبيعي الفلاحي.
- 2 - الإنتاج البضاعي الصغير ( هذا الباب يشمل اكثر الفلاحين الذين يبيعون القمح ).
- 3 - الرأسمالية الخاصة.
- 4 - رأسمالية الدولة.
- 5 - الاشتراكية.

إن روسيا على قدر من الاتساع والإختلاف بحيث أن هذه الأشكال الاقتصادية والاجتماعية تتشابك بصورة دقيقة « وهذا ما هو خاص في موقفنا » ( عن اليسار الطفولي والأفكار - البرجوازية الصغيرة. المجلد 27، ص 350 - 351 ). ماذا نلاحظ من ذلك: لدينا « الجديد »، الإشتراكية، ولكن لدينا أيضاً رأسمالية الدولة، و« القديم »، الشكل الأول منه هو ما قبل رأسمالي، كل هذا بحالة « أجزاء صغيرة »، « قطع »، نعلم ما الذي سيخضعها، انها الإشتراكية، ولكن كيف يجب أن تمارس اللعبة؟ ليس بشكل مبسط أبداً، ولكن بأنظمة تحالف حقيقية لبعض البنى الإنتاجية ضد البعض الآخر، وفقاً لإيقاع تفرضه الظروف المحيطة الملموسة والمتتابة، لن نحللها هنا<sup>(1)</sup>، يكفيني لأخذ فكرة تعددها أن نعود إلى سياسة النيب التي تحارب عودة الاقتصاد البضاعي الصغير والتي تنبأ بها لينين منذ بداية السنة 1918 ( انظر المجلد 27: المهام المباشرة لسلطة السوفيات )، أو إلى النصائح التي أسداها للنقائين ولأعضاء الحزب ليدخلوا مدرسة الرأسماليين حتى يتعلموا « إدارة الاعمال » ( انظر المؤتمر الحادي عشر للحزب الشيوعي الروسي ( البولشفيك ) التقرير السياسي المجلد 33، ص 267 وما بعد )، أو إلى معارضته لبوخارين حول العلاقة بين ( البنية الفوقية ) الامبريالية في روسيا، والبنية تحت التحتية الواسعة للرأسمالية القديمة « ( المجلد 29، ص 167 ).

وهكذا، لدينا خليط من أنماط الإنتاج، في كل تشكيلة اقتصادية اجتماعية، وإن كان بشكل «أجزاء»، لنحذر من التفكير بأن الأمر يسير كما في لعبة الضامة: إن المنطق الداخلي للتطور والملازم لكل بنية إنتاجية أو (نمط إنتاج) متضمن في منطق المجموع، لا يمكن أن يؤدي دوره بصورة تلقائية، فهو محكوم بدعوى نمط الإنتاج المسيطر، أو الذي في طريقه للسيطرة، بقدر ما يستخدم الأشكال الخاضعة له لإعادة إنتاجه الخاص<sup>(12)</sup>. وهذه حالة الملكية العقارية والدخل (المطلق، المختلف) الذي يعيد الرأسمال والقيمة الزائدة تشغيله في المرحلة الانتقالية من نمط الإنتاج الإقطاعي إلى نمط الإنتاج الرأسمالي وتحت سيطرة هذا الأخير، حتى أن المقولات الأخيرة هي التي تفسر حرفياً المقولات الأولى بالرغم من كونها تالية لها تاريخياً (كارل ماركس مقدمة 57، للأسس...) وهذه حالة الاستعمار باعتباره هجوم الإنتاج الرأسمالي على التشكيلات السابقة / المختلفة وصدقها وصدمتها الذي يستخدم كما نرى في أفريقيا وغيرها، الأشكال المحلية لإعادة إنتاجه الخاص المتوسع. المبدأ عام، الأنماط دائماً خاصة - أو قابلة للتخصيص - من السيطرة الناجحة، إذا استطعنا أن نقول ذلك، حتى الترابط الشاذ (حيث أعطى ماركس مثلاً عنه الاستعمار البريطاني في الهند: «إن الاستبداد الأوروبي مضافاً - بواسطة الحملة البريطانية في الهند الشرقية - إلى الاستبداد الشرقي، يشكل مزيجاً أكثر بشاعة من المسوخ المقدسة التي ترعبنا في هيكل سالت (Solsette). (يراجع في السيطرة البريطانية على الهند 10 حزيران 1854).

## 2 - الفلاحية / البروليتاريا :

إن التاريخ الذي حدثتكم عنه، قبل ذلك، يحمل عند لينين تعليقاً آخر ذو أهمية وليست بقليلة: إن إثبات، أن العلاقات الرأسمالية للإنتاج أصبحت مهيمنة في التشكيلة - الاقتصادية - الاجتماعية الروسية. احدثت في نظره نتيجة مزدوجة، سياسية هذه المرة: سأوجزها لأن المقصود هنا هو التذكير فقط:

- من جهة، لنقل العام: ضرورة خلق حزب سياسي مميز من البروليتاريا.
  - من جهة أخرى، ليكن الخاص: التشكيلة الاقتصادية - الاجتماعية الروسية - ضرورة التحالف مع الفلاحين.
- لكن هذا المنهج يتعرض لسوء فهم ليس فقط عند الشعبين الذين يعتقدون أن التحديد الاجتماعي يتأتى في الأرياف فقط، بل أيضاً عند الماركسيين الذين يجدون أن إنشاء الحزب سابقاً لأوانه نظراً للضعف العددي للطبقة العاملة من جهة، ومن جهة أخرى هم يرون تناقضاً في التقارب بين الغايات الثورية، بين طبقة (البروليتاريا) التي تحمل المستقبل والجماهير الفلاحية) التي تلتفت إلى الماضي. نستطيع إذن، كما فعل بليخانوف وآخرون غيره، أن نباشر فحماً دقيقاً للظروف الاقتصادية الروسية، وأن نقوم بنقد الطروحات الشعبية نقداً صحيحاً دون أن نتوصل إلى استخراج استراتيجية صالحة لقضية المرحلة الانتقالية، ونؤكد في نفس الوقت وجهات النظر المطلوب نقضها أي الروايات الاقتصادية التي تنتظر دائماً ذوبان السكر (وتصبح روسيا والحالة هذه فرنسا أو انكلترا)، أو الرؤيات الشعبوية، التي تريد رمي الطفل وماء الحمام معاً، بينما الأمر بالنسبة للينين هو

الاعتقاد بالضرورة المزدوجة. حزب ميمز / تحالف لأن المسألة ليست في نفي عدم تفرد روسيا (نمط انتاج رأسمالي / طبقة عمالية). ولا في رفض الخصوصية (نمط إنتاج خاضع، ولكنه موجوداً دائماً / الجماهير الفلاحية). « ما هو موقف العامل الواعي، الاشتراكي، بالنسبة لحركة الفلاح المعاصر؟ يجب أن يساند هذه الحركة ويساعد الفلاحين بالشكل الأكثر حيوية، مساعدتهم على قلب سلطة الموظفين والمالكين العقاريين الكبار بصورة كاملة وحتى النهاية. بعد قلب هذه السلطة يجب التحضير لانتهاء سلطة رأس المال وسلطة البرجوازية في نفس الوقت، ومن أجل ذلك يجب تعميم عقيدة اشتراكية صرفة، بكلمة أخرى ماركسية، وتوحيد البروليتاريا الريفية وجمعها وتنظيمها من أجل النضال ضد البرجوازية الفلاحية وضد البرجوازية الروسية كلها. يستطيع العامل الواعي نسيان النضال الديمقراطي من أجل النضال الاشتراكي أو نسيان النضال الاشتراكي من أجل النضال الديمقراطي (المجلد التاسع ص 458 - 459). ماذا يعني هذا؟ سوى ان البروليتاريا والفلاحية ذات أجزاء مترابطة في قضية الانتقال المزدوج الذي يفتحه عبور نمط الانتاج الاقطاعي نحو نمط الانتاج الرأسمالي.

- الانتقال نحو الديمقراطية البرجوازية التي ترسم نهاية الامتيازات التي يطمح الفلاحون اليها، حتى ولو بشكل مبهم (هنا تكمن حقيقة النظرية الشعبية).

- الانتقال نحو الاشتراكية، والقطع مع كل سيطرة برجوازية، يكون الانتقال في موضوعه «إدخال الصراع الطبقي إلى القرية» بمثابة جاذب لها (المجلد الرابع ص 44).

إن خلط المرحلتين أو معارضتهما ببعضها ببعض يقود إلى عدم تحقيق أي منها. فالتحالف العضوي (تكتيكياً) هو الظرف المشترك بينهما: ولكن، بينما تكون الأولى تعبيراً عن تقارب موضوعي لمصالح فئة من الطبقات الفلاحية والطبقة العمالية، تستدعي الثانية أن تذهب الفلاحية أبعد من الثورة الثقافية والملكية الخاصة للأرض، وأن تقر سيطرة البروليتاريا، الطبقة الوحيدة المعنية بنهاية كل استغلال. يقال: ان ذلك يسير تلقائياً.

هل هذا مؤكد؟

إذا كان صحيحاً أننا لن نعثر على ماركسيين يدحضون ضرورة تحالف البروليتاريا / الفلاحية<sup>(13)</sup>، فمن الصحيح أيضاً أن هذا التحالف لا يزال موضوعاً لاحتقار هنا وهناك: نحن نعلم جيداً أن الشعبية وان تزينت بهيئة الواقع الحالي، فهي لم تمت، وإن الخصوصية تتابع كونها احد ابنائها، انني اقترح ايضاً، بهذا المنطق الذي سبق، بعض الملاحظات الجديدة والأخيرة.

ومنعاً لكل سوء فهم، سنعرض تذكيراً تاريخياً بالقضية التالية: لقد عزز لينين أهمية المسألة الفلاحية في داخل الحركة العمالية واعتبر الممارسة الثورية الأهمية نموذجاً للعلاقة بين البروليتاريا والفلاحية، بدونها لن تتم مواجهة رؤيا العبور نحو الاشتراكية بصورة مبسطة لدينا ما يأتي:

أ - في زمن أول، منحت البروليتاريا المدنية امتيازاً خالصاً، وتم كل شيء وكأن الطبقة العمالية وحدها هي

الثورية. ثمة أسباباً موضوعية تفسر هذه الظاهرة: الأولوية المعطاة لتنظيم الطبقة العمالية الثورية الوحيدة (حتى النهاية) والوكيل الرئيسي للصراع ضد الرأسمالية (من الرابطة العالمية للشغيلة. إلى تأليف الأحزاب الاشتراكية الديمقراطية وحتى الأممية الثانية). إن الترجمة الأكثر بدهاءة لعمل ماركس تبدو تأكيداً لهذا الموقف: تناقض أساسي (النمط الانتاج الرأسمالي) بين العمل المتأجور ورأس المال. تناحر البرجوازية - البروليتاريا الذي لا يمكن ان يختزل، أولئك فيعود إلى اصولها (نمط الانتاج الاقطاعي)، وظيفتها في الانتاج، توجهاتها السياسية، لإيديولوجيتها وخاصة لبعض الاشكال السلبية العائدة لدورها التاريخي الحديث (مثلاً «الانتخاب الرجعي للفلاحين الفرنسيين» في كتاب ماركس، 18 برومير، والذي يعرضه انجلز أيضاً في كتابه المسألة الفلاحية: المقدمة).

ب - في زمن ثاني، المسألة الفلاحية تعبر إلى الصف الاول في اهتمامات الحركة العمالية وتتطابق هذه الظاهرة الجديدة مع بدايات الاممية الثانية، وتنتج عن وجود احزاب اشتراكية - ديمقراطية، غالباً ما تكون قوية، وعن الرؤيا السلطوية التي يملكونها (فرنسا، المانيا) وعن التحولات الداخلية للفلاحية المعاصرة للإنطلاقة الاقتصادية، وعن الواقع الذي تعرض الجماهير الفلاحية نفسها فيه «كنصر» ممكن للأحزاب العمالية، علاوة على ذلك أن هذه النقطة ذات علاقة مباشرة بالمسألة القومية والاستعمارية التي تلعب دوراً مهماً في مناقشات الأممية الثانية. لقد كانت السنة 90 محددة بالنسبة لهذا الموضوع، فقد كتب انطونيو لايريولا سنة 1895 في كتابه *1e essai en mémoire du Manifeste* يقول: «أن المسألة الحاضرة هي استمالة الفلاحين». إن المراحل الرئيسية تبدو كأنها الآتي:

#### 1 - الإستعدادات النظرية أو الاستراتيجيات التكتيكية.

أ - تفسير هامشي (1891) نعلم أن دراستي برنامج الحزب الالماني تحملان هذا العنوان.  
- نقد برنامج غوطا (1875، ماركس) ماركس ينتقد بعنف الفكرة القائلة بأن الفئات الأخرى المواجهة للطبقة العمالية لا تكون «سوى جماهير رجعية»، انجلز يذكر بذلك في رسالة إلى Bebel في 82/10/28.

- نقد برنامج Eurfert (1891): انجلز يلاحظ «ثغرة» في الفلاحين يراجع في المنشورات الاجتماعية (ص 80 - 81) مبدأ المطالبة بتركيز السلطة السياسية في أيدي الطبقة العمالية. لقد حفظت تفسيرات ماركس 15 سنة «في الخل» من قبل رؤساء الحزب الاشتراكي الديمقراطي الالماني، فليس غريباً إذن هذا التباعد (رسالة انجلز إلى كاوتسكي في 91/2/5).

ب - المسألة الفلاحية في فرنسا ومانيا (1894) أعطت لأنجلز الفرصة لإيضاح جيد حول المسألة الفلاحية (لقد أبدت الأحزاب البرجوازية والرجعية دهشة شديدة أمام رؤية المسألة الفلاحية تصبح فجأة المسألة الراهنة في كل مكان عند الاشتراكيين...»، اول النص) وضرورة تحليل طبقي للفلاحية، لتحديد

التحالفات بصورة صحيحة (انظر أيضاً... حرب الفلاحين...).

2 - الجهد النظري الخلاق واستكمال رأس المال.

ج - طبقت هذه المسألة بظهور كتاب كارل كاوتسكي، المسألة الزراعية (طبع 1898، ترجم إلى الفرنسية 1900 من قبل Giard et Brière، أعيد طبعه في ما سبرو 1970) الذي كتب عنه لينين سنة 1899: « هذا الكتاب بعد الكتاب الثالث من رأس المال، هو الحدث الأكثر أهمية في الأدب الاقتصادي الحديث ».

د - تطور الرأسمالية في روسيا للينين نفسه سنة 1899.

ملاحظة ثانية، ناتجة عن السابقة، لا فائدة من التوسع فيها في بلاد تنشئ ثورة زراعية، هذه الملاحظات تقوم على واقع أن الفلاحية ليست طبقة: اعتبار محدد للتحالف، بما أن مصالح البروليتاريا الزراعية الموضوعية وبصورة عرضية مصالح البرجوازية العقارية الصغيرة هي في النضال مع البروليتاريا المدنية ضد برجوازية الأرض، برجوازياتها.

ـ وبالعكس لا يبدو لي دون جدوى ترديد أن الجماهير الفلاحية بسبب وضعها في علاقات الإنتاج لا تستطيع أبداً الوصول إلى السلطة السياسية بشخصها، ولكن فقط بواسطة فئات أخرى أو طبقات اجتماعية أخرى، تأخذ على عاتقها هذه الجماهير الفلاحية، المقصود هنا هو مقولة ثانية وليس أثراً لنمط انتاج معين. ماركس اعطانا البرهان في 18 برومير للويس نابليون مع ايضاح قوى للموقف الخصوصي (الفرنسي في النصف الثاني من القرن التاسع عشر: « بونابرت يمثل طبقة محددة، الطبقة الأكثر عدداً في المجتمع الفرنسي، أي الفلاحين المجزئين (...)) بقدر ما تعيش الملايين من العائلات الفلاحية في ظروف اقتصادية تفصل بعضها عن البعض الآخر ويتعارض نمط حياتهم ومصالحهم وثقافتهم، بالنسبة للطبقات الأخرى في المجتمع فإن هؤلاء يمثلون طبقة، ولكن بقدر ما ينعدم الرباط المحلي بين الفلاحين المجزئين، وحيث تشابه مصالحهم لا يخلق بينهم أية رابطة، أية رابطة قومية أو أي تنظيم سياسي (...)) فهم لا يمثلون طبقة، إن الأثر السياسي للفلاحين المجزئين يجد بالتالي تعبيره النهائي بانتساب المجتمع إلى السلطة التنفيذية (المنشورات الاجتماعية ص 104 - 105).

من هنا، دون أن نؤكد على ذلك، الدور الذي يسميه ماركس « الأفكار النابليونية ». لقد أبرزت ثورات 1848 في إيطاليا، وأوروبا الوسطى، أي في البلاد (المتخلفة والتي لم تصل بعد إلى التماسك الوطني بالنسبة لفرنسا ولبريطانيا العظمى، الظاهرة نفسها: هم « الليبراليون » أو الارستقراطيون الذين يترأسون النضالات الشعبية - الفلاحية (كوسيوث مازيني بليجيونو) ألا تدعي البرجوازية في نمط الانتاج الرأسمالي الحق بأنها الناطق الرسمي للفلاحين خاصة عندما يتعلق الأمر بمنع ارتباطها بالحركة العالمية (راجع الدفاع القديم عن « المقيمين »)؟ وبغياب ذلك تنوب البرجوازية الصغيرة عنها؟ في أوروبا وغيرها لنفكر في كل المصادفات التي جعلت الفلاحية بعد أن قدمت اساساً قوياً للتحرير، لا تتوصل لترجمة مطالبها بعد الاستقلال إلا عن طريق الطبقات الوسطى، أو

البرجوازية الكومبرادورية المسيطرة من هنا الاختلال، التناقض، والاحتصاب الحقيقي: الذي يتكلم مكاني هل يسند خطاي أم خطابه؟

إن الموضوع قديم، قدم النضالات الفلاحية أكانت تخص غط الإنتاج الرأسمالي أم الإقطاعي بالنسبة لهذا الأخير، أعيدكم إلى التحليلات المهمة لبورشيف، في كتابه الخاص « الانتفاضات » الشعبية في فرنسا في القرن السابع عشر، وسرى فيه أن الانتفاضات الكبيرة (للقرويين) في نهاية السنة 30 وكانت توجه غالباً من قبل النبلاء الذين يحدون من مداها أحياناً، ولصالح السلطة الملكية أحياناً أخرى (راجع La Moth de la Forêt اعيد طبعه من قبل Flammarion 1972 . ص 84 وما يتبع). في المرات القليلة التي رأسها الفلاحون، كانت الهزيمة أو استعادة المتمردين (حالة Grelet الذي بعد أن قاد معارك قاسية ضد الأسياد منح العفو ومات بطلاً في سلاح الملك مع لقب حاكم: المصدر نفسه ص 94 وما يتبع).

ماذا يعني ذلك؟ سوى أن على الفلاحية في كل مرة ربط مصيرها بمصير الطبقات التقدمية في الجسم الاجتماعي: البرجوازية / أو البروليتاريا المدنية في المرحلة الانتقالية من غط الإنتاج الإقطاعي إلى غط الإنتاج الرأسمالي، طبقة عمالية من أجل العبور نحو الاشتراكية. إن أية شعبية حتى ولو كانت مزيفة كما نراها في بعض الحالات من المرحلة الحديثة، المردود الكبير لقانون لا يستطيع شيئاً ضد هذا القانون<sup>(14)</sup>، وليس هذا عمل صدفة ما ولكنه ضرورة تاريخية دقيقة، كما تناوها لينين في ظروف روسيا، فالثورات الفلاحية الناجحة (وإن كان ذلك لم يتم بدون عقبات) حدثت في الاتحاد السوفياتي وفي الصين وفي كوبا وفي فيتنام، أي في كل مكان حدث التحالف العضوي مع الطبقة العمالية وتحت هيمنتها. وبما أنه يجب أن نستنتج شيئاً، لنقل أنه لا وجود لانسداد في أنماط الإنتاج، أن الظروف الموضوعية تتطلب الأوقات الصالحة لتغييرها الثوري، خاصة في المرحلة الانتقالية. هذه الأدوات موجودة: مفاهيم، رأينا بعضها، وقوانين يجب أن نقيمها، لأنه من الواضح الآن أن الظروف التاريخية المحيطة، خصوصية جميعها، وإن هذه الخصوصية تؤثر بصورة إجمالية في تشكيلة ما على مختلف مستوياتها وإذا لم يكن هناك وصفات أو نماذج، فليس هناك أيضاً ما يتعذر اختزاله، إن الممارسة السياسية العلمية تطرح السؤال نفسه أينما كان: من الذي يتغلب؟ هذا السؤال الذي يتحدد هكذا: ما هي الطبقات المسيطرة أو التي في طريقها للسيطرة؟ أية طبقة (طبقات) أو أي قسم من الطبقة سيحكم؟ ما هي طبيعة الدولة؟ ما هي الإيديولوجيا المسيطرة؟ ما هي الإيديولوجيات الخاضعة؟ القوى السياسية؟ المحتوى الأممي؟

لنتذكر أن الثورة كالمرحلة الانتقالية، هي قضية، ولكنها قضية لا تترك شيئاً ساكناً أكان ذلك في الاقتصاد أو السياسة أو الإيديولوجيا.

لننضم إلى التحذير الذي وجهه لينين إلى كاوتسكي عندما كتب: « هو يجمع مختلف الحلول جنباً إلى جنب، بدون أن يفكر بمسألة وحدها حقيقية وحدها ماركسية، مسألة معرفة كيف يجب أن تكون المراحل الانتقالية



من الرأسمالية إلى الشيوعية، في ظرف أو ظروف خاصة (المجلد 28 ص 316 - خط التشديد من لينين).  
إن العلم الذي بناه ماركس لا موضوع آخر له سوى هذا الموضوع وأن نستفيد منه، هذا عائد لنا.

## الحواشي

- (1) فيما يخصني اسمح لنفسني بأن ادعو القارئ الجزائري أو العربي إلى بعض التحليلات السابقة.
- (2) انني اضع هذه الكلمات بين مزدوجين، لأنها غير محددة وتشير الشكوك، باختصار: «العالم الثالث» يردنا إلى عالمين آخرين، بنسبة غامضة: مثلاً «تفرد» هذا العالم الثالث، تشابه أو عدم تشابه مع العالمين الآخرين (تعارض المنطور مع المتخلف، تخلفه بالنسبة لأي تطور؟) وهذين الآخرين هل هما متشابهين مختلفين، متحالفين متنافرين؟، الاقتصاد «التابع» التبعية يعني مسألة السيطرة، شكلها، من المسيطر وكيف؟ الامبريالية توضع بين مزدوجين، ومن هذا المنظار ومهما بلغ تحفظنا على مفهوم «الطريق اللارأسالي» فإن له أفضلية على ما سبق، كونه يفرد مكاناً للمسألة التي «يتغلب عليها».
- (3) لأنه من الواضح أن هذه «الماركسيات» حتى لو لم يكن للماركسية فيها إلا حيز ضئيل، تخضع في ظهورها لشروط موضوعية يجعل من دحضها أو رفضها أمراً ضروري الحدوث، لتصبح مؤسسة الماركسية والتحريفيون «للينين» (انظر المجلد الخامس عشر) يبقى بهذا المعنى نموذجاً للتحليل، لأنه ما يجب عمله هو إيضاح «الجدور الاجتماعية للايديولوجيات في المجتمع الحديث. وليس تصرف بتأثير محرمات ما (ص 34).
- (4) Lénine: Cahiers sur la science de la logique de Hegel: œuvres L. 38, p. 203.  
عن هذا التحليل، اسمح لنفسني برد القارئ إلى كتابي الصغير:  
«Le Marxisme d'aujourd'hui» P.U.F. coll. logos, Paris 1973.
- (5) والذي يمثل مدخلاً لللينينية.  
Lettres sur le capital. ed. sociales. Paris 1964. L. 333, p. 261. انظر:
- (6) أيضاً: كل المراسلات التي ستذكر ستعود إلى هذا المصدر وخاصة رسائل Danielson.  
بعض النصوص المأخوذة من دفتر الملاحظات لماركس، مخصص للجزائر، نشر مؤخراً باللغة الفرنسية في Nouvelle critique 1959 العدد 103، ثم أعيد نشره. ed. s. Sur les sociétés Précapitalistes.
- (7) أنظر عن المجتمعات ما قبل الرأسمالية، مصدر ذكر سابقاً ص 357 وما يتبع. هذا المقطع لأغفلز كان معروفاً من لينين، لقد ترجمته إلى الروسية فيرا زاسوليتش في السنة 1894 (انظر لينين الأعمال الكاملة المجلد الثاني ص 20).
- (8) في مقاله «أي إرث ننكر؟» يقدم لينين أول تعريف للشعبية: «نعني بالنظرية الشعبية سيقام من التصورات يتألف من ثلاث خصائص رئيسية.  
أ - يعلنون أن الرأسمالية في روسيا هي عملية إنحدار وتأخر. من هنا الرغبة، والتمنيات «بتأخيرها» «بإيقافها» «بقطع التهدم» الذي تحدثه الرأسمالية في التشكيلات التقليدية وغيرها من الشكاوى الرجعية.  
ب - يعلنون تفرد النظام الاقتصادي في روسيا بشكل عام، وتفرد الفلاح وجمعيته الريفية، وتعاونيته بشكل خاص، لا يعتقدون بفائدة تطبيق المفاهيم التي أنتجت العلوم الحديثة في موضوع الفروقات الطبقة الاجتماعية ومنازعاتها، على العلاقات الاقتصادية في روسيا، وتعتبر

الجمعية الفلاحية أرقى من الرأسمالية، وأرفع منها. يرفعون «تشكيلاتنا» الاقتصادية التقليدية «إلى المثال، ينكرون وجود التناقضات الخاصة بالاقتصاد البضاعي والرأسمالي داخل الاقتصاد الفلاحي، ينكرون أية علاقة بين هذه التناقضات والشكل الأكثر تطوراً والذي تكتسبه هذه التناقضات داخل الصناعة والزراعة الرأسمالية 30 - يجهلون الروابط التي تربط المثقفين والمؤسسات القضائية في البلاد بالمصالح المادية الاجتماعية المحددة. إن إنكار هذه الروابط وغياب التفسير المادي لهذه العوامل الاجتماعية يجعلهم يرون فيها قوة قادرة على دفع التاريخ في اتجاه آخر، «وحرره عن سيره»، وهكذا» (خط التشديد من لينين).

(9) انظر المقطع المذكور آنفاً في كتاب عن المجتمعات ما قبل الرأسمالية: ماركس يحلل تقرير قارفر ص 395 وما بعدو يستعمل ماركس عبارة «بلاد ذات نمط انتاج غير رأسمالي وحيث كتب كوفالسكي» بلاد لم يتبع الزمن لتكون الاقتصاد الرأسمالي فيها». (ص 397).

(10) هل دكتاتورية البروليتاريا شيء آخر سوى إنتاج «مرحلة الانتقال من الرأسمالية نحو الشيوعية». (المجلد 25 ص 446، أيضاً المجلد 27 ص 263)؟

(11) إن كلمة تحالف استعملها لينين بهذا المعنى، (انظر المؤتمر الحادي عشر للحزب الشيوعي الروسي (البولشفيك) التقرير السياسي، في المجلد 33، ص 273 وما بعد)، لقد قام روبير لينهار (انظر *Etudes des planifications Socialistes*) العدد الثاني - آذار - 1966 بتحليل مفصل لسياسة النيب، في N.E.P. في نفس العدد تراجع دراسة تبليهايم المخصصة لاشكالية المرحلة الانتقالية، التي تضع المفاهيم الاساسية في محلها وتؤكد، عل ضرورة حيث الظروف السياسية والإيديولوجية للمرحلة الانتقالية فضلاً عن الظروف الاقتصادية (ص 138).

(12) انظر Pierre Philippe Rey et son étude très suggestive l'articlerlation des modes de production. problèmes de planification cahiers de l'E.P.H.E. 6e section 13 - er 14. Paris. منظر خاصة عن المفاهيم نمط انتاج وتشكيلة - اقتصادية - اجتماعية النقاش بين الماركسيين الفرنسيين والايطاليين في Critiques Marxistes منذ 1970 وفي Pensée العدد 159 تشرين 1971 لتحضر لندوة في تشرين 1974 في باريس.

(13) من البديهي أن هذا التحالف، الذي نميزه هنا، ليس الوحيد، إذ من الممكن أن تحدد الممارسة السياسية تحالفات أخرى وفقاً للظروف الموضوعية (مع البرجوازية الصغيرة، مع بعض فئات المثقفين... الخ).

(14) انظر المذبذبون في الأرض.